مقدمة

أطفال اليوم بُناة الغد، عليهم تقوم نهضة الأُمة وتقدمها، يشيدون حضارتها، ويحمون مجدها، ويذودون عن حياضها، هم مناط آمالنا، ومعقد رجائنا، فما أشد حاجتنا إليهم: أقوياء الأبدان، أصحاء النفوس، أذكياء العقول، يتمتعون بوعي راق، وفهم ثاقب، ونظر بعيد، وخيال خصب وذوق رهيف، ووازع ديني قوي.

من هنا تتجلى أهمية إمدادهم بالفن الإسلامي الذي يهيؤهم لتحقيق الأهداف المنوطة بهم، ويسهم في تنشئتهم تنشئة سليمة صحيحة قوية، كما يعينهم على التصدي لحياتهم، وارتياد المجهول، وتذليل الصعب، وفض المغلق، وتذوق الجمال، فيتعاملون مع الحياة تعاملاً سوياً بناء.

ويستطيع الأدب الإسلامي ـ وهو في مقدمة الفنون التي تلزمهم ـ أن يلبي احتياجاتهم النفسية، ويسهم في إشباع اهتماماتهم العقلية، ويربي أذواقهم، ويصقل مشاعرهم وإحساساتهم، ويمكنهم من التصدي للحياة ومتغيراتها، بإيجابية ووعي، في ظل عقيدة سليمة ووازع ديني قوي.

ونحن بهذا المسلك إنما نستجيب لنداء الإسلام في تربية الأبناء، ونحقق توجيهات الرسول ـ ﷺ ـ في الحث على رعايتهم، وفي الوقت نفسه نستعد بهم لمواجهة المستقبل القريب والبعيد.

من هنا كانت أهمية (أدب الأطفال الإسلامي) بفنونه المختلفة؛ من مسرحية،

وقصة، ومنظومة شعرية، وغيرها، لدوره الفاعل في تحقيق ما سبق.

وبالنظر إلى أن اهتمامنا بهذه التوجهات في أدبنا قد انقطع بين الأمس واليوم، فإن ذلك يجعل المهام في العصر الحاضر خطيرة ومتعددة، في هذا المجال، لنكون في المستوى اللائق ببناء أطفالنا، ولعل تعدد المؤسسات التي تهتم بالأطفال ورعايتهم وتقدمهم في عالمنا العربي والإسلامي، وعلى مستوى العالم كله، بادرة خير، يرجى لها أن تحقق الآمال، وتلبي الرجاء.

ولقد كثرت النصوص التي تنتسب إلى أدب الأطفال بالحق أو الباطل، وقليل منها هو الذي يحقق الغايات المرجوة، لأن النص الأدبي للأطفال ليس عملاً تربوياً فحسب، وإنما هو عمل فني بالدرجة الأولى، وهيهات أن تتحقق هذه الفنية بسهولة أمام ما يعترض طريق هذا الأدب من صعوبات جمة. لعل في مقدمة هذه العقبات أن الكبار هم الذين يكتبون لهؤلاء الأطفال، وهم قد تجاوزوا هذه المرحلة، مما يتطلب منهم ـ ليس فقط ـ استرجاع طفولتهم بملابساتها والعوامل الفاعلة فيها ولكن عليهم أن يعايشوا طفولة اليوم، وما أكثر متغيراتها.

وقد يكون هؤلاء الكُتّاب ممن درس التربية وعلم النفس، وأحاط بمراحل الطفولة وخصائصها النوعية، لكنهم لم يتصلوا بالأدب ـ خاصة الإسلامي منه ـ ونماذجه بما يهيؤهم للإبداع فيه، وبناء النصوص التي تحقق غايات أدب الأطفال ووظائفه، خاصة من حيث الامتزاج بين القيمة الإسلامية والظاهرة الفنية امتزاجاً يتسلل إلى عقل الطفل ووجدانه.

وقد يكون هؤلاء الكُتّاب مبدعين للكبار، لكن إدراك ـ احتياجات الطفولة ـ الدائمة واهتماماتها المتغيرة، وتنظيم علاقاتها بالحياة، بحاجة إلى خبرات ودراسات متنوعة تلبي هذه المطالب الملحة، وأمامنا نماذج متعددة ـ لبعض المبدعين لأدب الكبار ـ لم تحقق هذه الغايات خير شاهد على هذا الزعم.

من ثم فنحن بحاجة إلى كُتّاب أدب الطفل الإسلامي المبدعين الموهوبين، الذين يتمتعون بخبرات الحياة ونظريات المعرفة، في هذا المجال الغض الدائم التجدد، والذي يتجاوز كونه تبسيطاً لأدب الكبار إلى تشكله بسماته الخاصة في مختلف الفنون، وهو ينتمي للإسلام شكلاً وموضوعاً.

وما أقل الدراسات التي تتتبع هذا النتاج الأدبي الإسلامي بالتفسير والتقويم، حتى يحقق الغايات المنوطة بأدب الأطفال، برغم الحاجة الملحة إلى هذه الدراسات، حتى تضيء الطريق أمام كُتّاب هذا الأدب، وتواكبه في نشأته وتطوره، في شمول يستوعب مختلف فنونه، وأثر المتغيرات فيها.

من هنا فقد قسمت البحث إلى بابين: الأول منهما تنظيري ويتألف من ثلاثة فصول، في الأول منها حاولت استقصاء العلاقة بين الأدب والثقافة كمدخل لتحديد مفهوم أدب الأطفال الإسلامي وفنونه ووسائله وغاياته، وبرغم أنها علاقة وثيقة فالأدب الإسلامي جزء أساسي في منظومة الثقافة، لكنه ينفرد بوسائله اللغوية التعبيرية التي تجسده، وتحقق غاياته في إثراء فكر أطفالنا، وتزويدهم بخبرات تعينهم على سلامة عقيدتهم والمواجهة السوية لحياتهم، كما أن لهذه الوسائل دورها في إمتاع وجدانهم، وصقل مواهبهم، وترقية إحساسهم بالجمال، وبذلك يسهم أدب الأطفال في بنائهم دينياً ونفسياً وعقلياً ووجدانياً، كما تكون غاياته قد اتضحت.

وفي الفصل الثاني عالجتُ العلاقة بين الأدب ومراحل الطفولة، وأفدت من الدراسات النفسية التي تولي هذه المرحلة اهتمامها، فعرضت لمراحل الطفولة الثلاث: ـ المبكرة والمتوسطة والمتأخرة، مشيراً إلى الخصائص النفسية والفنية، التي يمكن أن تتوفر في النص الأدبي الإسلامي الملائم لكل مرحلة من هذه المراحل، وتناسب الاستعداد النفسي والفني، والتهيؤ العقلي لتقبل الأفكار، سواء ما يتعلق بالعقيدة أو الأخلاق، أو غيرهما من أمور الدين والدنيا، وما يعين الطفل على تذوق النص وتمثل جمالياته، وقد رفدت كل مرحلة بالإشارة إلى نماذج من

النصوص الأدبية الإسلامية التي تلائم هذه السن. وتوضح ما ارتأيته خلال تحليلها.

ثم عرضت في الفصل الثالث للمصادر التي يمكن أن توفر للمبدع المادة التي يمكنه توظيفها وصياغتها لتشكيل النص الأدبي الإسلامي للأطفال، وكانت المصادر الإسلامية: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف أهم المصادر، لما تتضمنه من مبادىء وقيم تتصل بالعقائد والعبادات والمعاملات، التي بها تستقيم الحياة، كما يتضمن هذان المصدران كثيراً من وسائل العرض الفنية، التي يمكن أن يفيد منها كُتّاب أدب الأطفال الإسلامي فترقى إبداعاتهم فكرياً وفنياً.

ثم أشرت إلى المصادر التراثية، وهي تشتمل على ما يتصل بالإسلام من المصادر غير القرآن الكريم والحديث الشريف.

كما عرضت لما يمكن أن تقدمه الترجمة والمتغيرات من مادة ومعارف واتجاهات لتشكيل نصوص أدب الطفل بصفة عامة.

وهذه المصادر الإسلامية والتراثية، والترجمة والمتغيرات تكاد تستوعب كل المصادر في هذا المجال تقريباً.

أما الباب الثاني، فيتضمن الجوانب التطبيقية، ويختص بمعالجة أجناس أدب الأطفال الإسلامي: المسرحية، والقصة، والمنظومة، وهو يتألف من فصلين، خصصت الأول منهما للمسرحية، فأشرت إلى بعض خصائص مسرحية الأطفال في ضوء سمات مسرحية الكبار، ثم قدمت تحليلاً لنموذج شعري من مسرحية الأطفال هو «جحا والبخيل» لأحمد سويلم، للكشف عن السمات الخاصة بمسرحية الأطفال الإسلامية: حدثاً، وصراعاً، ولغةً، وحواراً، وقد آثرت الشكل الشعري، لأنه في نظري غني بالوسائل الفنية الجمالية، التي تتبعت أثرها في الكشف عن غايات هذه المسرحية، خاصة قيم الدين الإسلامي كرعاية الجار.

ثم عرضت لنموذج آخر من النثر هو «فراش الرسول» ـ ﷺ ـ لمرزوق هلال،

ناقشت خلاله كيفية توظيف التراث، خاصة للأطفال، وأشرت إلى كيفية الربط بين القيمة الدينية، والوسيلة الفنية وامتزاجهما في العمل الأدبي الإسلامي للطفل.

وهكذا انتهيت إلى الفصل الثاني: من الباب الثاني الذي جعلته للقصة فقارنت بين المسرحية والقصة في تحقيقهما لأهداف وغايات أدب الأطفال، وأشرت إلى خصائص بناء القصة الإسلامية للأطفال، مستفيداً ممن كتبوا في هذا المجال، ثم عرضت لقصص الخيال العلمي، فحددت مفهومه، وبعض خصائصه، ثم أشرت إلى نشأته، ومزاياه.

ونظراً لأن أحمد شوقي له مجموعة كبيرة من القصص والمنظومات، التي جمعها الأستاذ/ عبدالتواب يوسف في ديوان شوقي للأطفال، ولم يحظ هذا الديوان بالدراسة اللازمة للتعريف به وإضاءته، فقد جعلته موضع دراستي، فتحدثت عن شوقي وتوجهاته في أدب الأطفال، ثم قدمت جدولاً يتضمن توزيع هذه القصص والمنظومات على مراحل الطفولة، وأوضحت الأسس التي على أساسها كان هذا التوزيع، لأن كثيراً مما يقدم لأطفالنا من نصوص لا يحدد فيها مرحلة بعينها يلائمها هذا النص أو ذاك، مما يوقع الأطفال والكبار في الحيرة، وتلك ملاحظة يجب رعايتها في كل ما يقدم للأطفال، خاصة في مجال الأدب الإسلامي.

ثم قدمت نموذجين تحليلين لقصتين من قصص هذا الديوان، إحداهما يمكن أن تلائم مرحلة الطفولة المتوسطة، وهي «الأرنب وبنت عرس في السفينة» حاول شوقي فيها توظيف سفينة نوح عليه السلام، وأبنت عن رأيي في هذا التوظيف.

ثم قدمت تحليلاً لنموذج آخر، يمكن أن يلائم مرحلة الطفولة المتأخرة هو «الثعلب والديك» وقد أشرت خلال تحليلي إلى السمات التي جعلت النص السابق ملائماً لمرحلة الطفولة المبكرة، بينما النص الثاني ملائم لمرحلة الطفولة المتأخرة، وهي سمات فنية مرتبطة بالخصائص العقلية والنفسية للأطفال في هاتين المرحلتين،

ومستوى إدراكهم للجوانب الجمالية فيهما، ووعيهم بالقيم الدينية لهما.

وهكذا انتهيت إلى المنظومة، التي خصصت لها هذا الجزء الذي جاء صغيراً في حجمه، لأن السمات الشعرية كانت هي الغالبة على كل ما قدم من نماذج مسرحية وقصصية في القسمين السابقين.

ومن ثم فقد حددت مفهوم المنظومة ومزاياها وخصائصها، كما قدمت تحليلاً لنموذج هو: «الرفق بالحيوان»، أبنت خلاله أهمية الإيقاع في المنظومة وتشكيل خصائصها، وتحقيقها لأهداف أدب الأطفال الإسلامي.

ولا شك أن هناك جوانب أخرى كان يمكن أن يعالجها هذا البحث، مثل: نشأة هذا الأدب، وتطوره، وموضوعاته، وغير ذلك، لكنني قصرته على النص الأدبي الإسلامي للأطفال، فذلك ـ في نظري ـ هو ما يجب أن يحظى باهتمامنا أولاً، لأنه مرتكز هذا الأدب، من ثم فإن ـ إثراءه بالبحوث والدراسات والنصوص الإسلامية بغية تطويره، وتحقيقه لمزيد من الغايات والأهداف أجدر بالاهتمام بالنظر إلى ما يملأ الساحة من نماذج، لكن قليلها كما أشرت هو الذي يحقق الرجاء.

هذا وبالله العون، منه التوفيق، وعليه التوكيل.

الدكتور سعد أبو الرضا

«إن أدب الأطفال ليس عملاً تربوياً فحسب، ولكنه عمل فني أيضاً، بل هو عمل فني أولاً. وكم نشفق على الملايين من أطفالنا لأنهم لا يجدون إلاّ القليل من الأعمال التربوية، ولا يكادون يجدون شيئاً على الإطلاق من الأعمال الفنية».

د. شكري عياد

(الأدب في عالم متغير سنة ١٩٧١م)

oberkandl.com